مملكة البيان ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾

﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ فصار هذا المخلوق بالمنطق آية باهرة على عظمة خالقه، وصار بالبيان مخلوقًا كريمًا يقول الكلمة فتخلب الألباب، وينطق اللفظة فتدهش العقول، يصوغ من الحروف سحرًا، ويجري من الجمل نهرًا، يهدِّئ الجموع الثائرة بخطاب، ويحرك القلوب الخامدة بموعظة، وإن العبارة البليغة الباهرة لهي أجمل من اللوحة الهائمة في الحسن، وإن الجملة الموحية الآسرة الأخاذة لهي أبرع من ريشة الرسام العبقريِّ، وإن أهل العقول الراشدة السوية يجدون في مطالعة البيان من المتعة واللذة ما لا يجدونه في مشاهدة الخمائل المائسة، والجداول الرقراقة.

واعلم أن قوت القلوب موائد من المعاني الجميلة الخلابة، وإن زاد النفوس لهو مدد من البينات، وإن معين الأفئدة الرقراق لهو عين من الإبداع في القول يشرب بها النبلاء يفجرونها تفجيرًا.

إن من أعظم أوصاف رسالته ﷺ أنها ذات بيان باهر، وبلاغة فائقة، وتأثير عجيب، ودونك هذا القرآن الكتاب الخالد، والمعجزة الظاهرة، التي شدهت العقول، وهزت الأنفس، حتى أنصتت لها البصائر بإمعان، وأخبتت لها الأرواح في خشوع، فاهتزت لهذا البيان، وربت بهذه البلاغة، وأنبتت من كل زوج بهيج من الإيمان والعطاء والتضحية.

كان رسولنا ﷺ أفصح الناس كل الناس، وأبلغ البشر جميع البشر، فجاء خطابه غيثًا هنيئًا مريئًا، يهجم على القلوب القاحلة فإذا هي حدائق ذات بهجة ببركة هذا الكلام، فصارت جمله ﷺ حديث السُّمار، وزاد الركب، أشهر من الأمثال، وآنس من العافية، وأجمل من طلعة الفجر الباهية، ولأن المتفوقين من الناس والبارعين من العقلاء يطربون لأسرار الإعجاز في البيان، ولطائف الإلهام في القول، ونكات الفصاحة في الحديث، ولقد أمر الله تعالى رسولهﷺ أن يهز الأنفس بالقول المؤثر فقال: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣]، فبالقول البليغ تقوم الحجة، وتتضح المحجة، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق.

وقد أحببنا أن نسافر مع الكلمة الشاردة الفريدة، والجملة الناصعة المشرقة والقول الفصيح الجذاب فاخترنا شاعرًا لامعًا، وأديبًا باقعة، وعبقريًا فذًا، تجذرت كلماته في قلوب رواد الإبداع، وغاصت إشراقاته في نفوس محبيه، هذا من حيث جمال شعره، وروعة قصائده، وسحر بيانه، وأما من حيث مذهبه ومنهاجه في حياته فلنا معه وقفات ومؤاخذات، لا نظلمه ولا نهضمه، ولا نفرط عليه ولا نطغى، بيننا وبينه ميزان الإنصاف، لا يضيع حبة خردل من الحقيقة، وأمامنا وأمامه كتاب المروءة والعدل، لا يغادر صغيرة من الإبداع ولا كبيرة من جواهر البيان إلا أحصاها.

فمرحبًا بملك الشعراء في مملكة البيان، ونحييه بقوله هو:

يا فخـر فإن الناس فيك ثلاثـة مسـتعظم أو حاسـدٌ أو جاهـلُ

وإذا أتتـك مذمتـي مـن ناقصٍ فهـي الشـهادةُ لـي بأني كاملُ

وسوف نقرأ المتنبئ قراءة المتلمس للبيان، المشغوف بالحسن، المتلهف على الإبداع، وهو الذي يقول لنا:

لا تعذلِ المشتاق فـي أشـواقه حتى يكون حشاك في أحشائه

وقد أبدع في هذا البيت، وإليك بسطه بالنثر، فهو يقول لك: أرجوك لا تثرب على المشتاق المحب في تلهفه وتوجعه واحتراقه، ولا تلمه على زفراته والتهاب حشاياه، واضطراب جوانحه، فإنه معذور بما يحمل من حب، وما يجد من صبابة، فما دام أنك لم تذق ما ذاق من اللوعة والأسى، فلماذا ـ رعاك الله ـ تلومه وتؤنبه؛ لأنّ حالك غير حاله.

ونحن في قراءة شعر المتنبئ نجد من هذه اللوعة والاشتياق والتأثر ما نرجو معه أن يعذرنا لائمونا، ولا يثرب علينا أحد من الناس هذه النزعة الأدبية، والغرام البياني مع كل لفظ جميل ساحر.